المرأة والرجل وهل يتساويان

لجناب الدكتور شبلي شميل (١)

مسألة كثر تحدُّث الخاصّة بها وذهبوا فيها رأيين متضادّين . وطالَبَ القائل بتساويها بحقوق المرأة المرتّبة على هذا التساوي والتي اهتضمها الرجل في زعمهِ من قانون البشريّة صَلفًا وعنوًا او كما تقول المرأة لانه هو الذي سنّ هذا القانون فآثر نفسهُ فيهِ استبدادًا حتى انكر عليها النفس التي يفتخر بها على سائر المخلوقات . وانكر هذا الحق من ذهب ضدّ مذهبهِ ونسب دعواهُ الى غيرةٍ اعماها الهوى ورأيٍ اضلّهُ الوهم . ولقد شحذ المتباحثون في المسألة قرائحَ امضى من القواضب وجرّدوا لها ألسنةً احدّ من الاسنّة وبروا لها اقلامًا اقوم من قدود الهيف اذا انجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعناتٍ اوقع من لحاظهنّ اذا رنّت سهامها في القلوب . وتجاروا في مضمارها تجاري خيل الطراد في يوم الوغى . فمن آخذٍ بناصر المرأة ارتفع بها الى اوج البشريّة وقال ما هي بشرٌ ان هي الّا ملكٌ كريم . ومن متحاملٍ عليها انحطّ بها الى حضيض البهيميّة وقال ان هي الّا متاعٌ خُلِقَ للرجل وليست بشرًا سويًّا . وكلاهما تجاذب في القول طرفَي الافراط والتفريط وادّعى نصرة الحق وما اتّبع في نصرتهِ الّا الهوى

ولم يَفُتْ نبهاء قومنا جولةٌ في حومة هذا المجال فقد سمعتموهم في هذه الجمعيّة يتباحثون ويتناظرون مستطردين دراري المعاني من سماء الالفاظ حتى كدنَ يلقطنَ باليد . وشهدتم مواقع نزالهم في حلبة مفتطنا الأغرّ وغيرهِ من جرائدنا الوطنية ورأيتم كيف ان هذه الحرب قد اتّقدت نارها في قلوبهم وحمي أُوراها في رؤوسهم ونعمَ المرام . الّا انهُ لا يؤاخذني كاه هذه الحرب وفرسانها اذا قلت انهم جالوا بنا الى غير محسم نزاع ووقفوا بنا على غير موقف هُدًى حتى تخيّل للقارئ والسامع ان المسألة ككثيرٍ من المسائل الخلافية سلسلةٌ لا تنتهي حلقاتها ودورٌ لا يُعرَف طرفاهُ وما ذلك في اعتقادي الّا لانهم ولجوها من غير بابها ولذلك رأيت ان اقرعها من الباب الذي يُدخَل منهُ وانحها من الوجه الذي يُختلَف اليهِ

ذهبت طائفة من اهل النظر الى ان المرأة مساوية للرجل في العقل . وفي اعتقادنا ان البحث طبيعيٌّ محض اعني انهُ من مباحث علم الحيوان المعروف بالزوولوجيا او بالحري من

(١) خطبة له تلاها حديثًا في جمعية الاعتدال بالقاهرة

مباحث علم الانسان الذي هو فرعٌ منهُ والمعروف بالأنثروبولوجيا ولا يصحُّ ان ينظر اليهِ من غير هذا الوجه او يُقطَع فيهِ حكم بدونهِ . والانثروبولوجيا لا كما يفهمهُ المتقدّمون علم اقرب الى النظر وإلّا اتسّع بنا مجال القول ونحنا في فيافيهِ ووقعنا في بلبالٍ لا يجمعنا فيهِ سوى فوضى الاختلاف وخرجنا منهُ كما خرجنا اليهِ . وربّما تشعّبت المسألة دوننا الى فروع كثيرة افضى بنا الولوج فيها الى الاعراض عنها والتوغّل في امورٍ جدليّة لا طائل تحتها كما هو دأب الذين لا يستندون في بحثهم الى اساسٍ متين مرشدٍ لبرهان المستطلع كالجِ لجاح المُشيطّ . ولكن كما يفهمهُ المتأخّرون علمٌ يُبحَث فيهِ عن الانسان من حيث كونهُ حيوانًا وانسانًا معًا في تركيبهِ وقواهُ وافعالهِ فساق الكلام على هذا النهج يسهّل علينا فهمهُ ويقينا فيهِ عثرة الشّطَط فلا نرتفع بهِ محلّقين الى "لا أوج" ولا نهبط بهِ سافلين الى "لا قرار" بل نضعهُ في مقامهِ الطبيعي

وأوّلاً ننظر اليهِ في الانواع اي انواع الحيوان المختلفة . فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشدُّ من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساويةٌ لهُ في ما كان بينهما وذلك قاعدةٌ مطّردة الّا في ما ندر والنادر لا يعتدُّ بهِ . فانثى النحل والزنابير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات اشدُّ من الذكر[1] وانثى الطير والحيوانات اللبونة وسائر ذوات الفقر العالية اضعف منهُ غالبًا . ويستفاد من هذا ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوانات المحطّة في سلّم النشوء وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوانات الراقية . وسنبيّن اوجه هذا الامتياز . وهنا الطريق وعر والمسلك صعب فأرجوكم ان تتبعوني فيهِ متزوّدين جانبًا من الصبر

ففي الطيور والحيوانات اللبونة النغذية اقوى في الذكر منها في الأنثى والدم اشدُّ وفيهِ من الكريّات الحمر الصالحة للتغذية اكثر ممّا فيها ومن الكريّات البيض القليلة الصلاحيّة لها اقلُّ (كوينكود وكرنيلوف) . وفي المليمتر المكعّب من دم الرجل مليون من الكريّات الحمر اكثر ممّا في دم المرأة (مَلاسز)

والرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها أنهم منهُ اي انها تشره فيهِ اكثر منهُ . والتنفُّس

(١) وشاهدنا المفتلة التي تنشب في قفران النحل اي حماطتها بين الاناث والذكور والتي تدور فيها الدائرة على الذكور لضعفها عن مقاومة الاناث . وهذه المفتلة البربرية على جانب من الحكمة والاقتصاد لانها تحصل من شهر حزيران الى شهر آب من كل سنة عندما لا يعود للذكور فائدة ويصير لوجودها ضرر وهو اكل جنى النحل . والحكمة لا تعرف الرفق ولا تشفق خلافًا لما يظن بل كثيرًا ما تقضي بتضحية البعض حفظًا لحياة الجماهير كما هو شان السياسيين ايضًا في الاجتماع البشري

اقوى في الذكر منهُ في الانثى واذا تساوى الرجل والمرأة في الفد فتسع رئتهُ من الهواء نحو نصف لتر اكثر من رئتها . وهو يتناول من الاكسجين المطهِّر للدم اكثر منها وان كانت تتنفَّس اكثر منهُ وتزيدهُ نفسًا واحدًا في الدقيقة من سن ١٥ الى سن ٥٠ (كواتلت) . وهو يفرز من الحامض الكربونيك المتحصِّل من احتراق الانسجة اكثر منها في جميع الاسنان (اندرال وغنزبرت) . وحرارتهُ اكثر من حرارتها وكذلك حرارة الديك بالنسبة الى الدجاجة

وقوَّة ضغط الدم اعظم في الذكر منها في الانثى وانما نبضهُ ابطأُ من نبضها والفرق من ١٠ الى ١٥ نبضة في الدقيقة بين الرجل والمرأة و ١٨ بين الأَسَد واللبوة و ١٠ نبضات بين الثور والبقرة و ١٢ نبضة بين الكبش والشاة

وعظام المرأة اخفُّ من عظام الرجل . وفي عظامهِ من المواد الترابية اكثر ومن المواد الحيوانية اقلّ ومن كربونات الكلس اكثر ومن فصفاتهِ اقل ممَّا في عظامها (ملْن ادوار)

والرجل يستعمل يمناهُ اكثر من المرأة والمرأة تستعمل يسراها اكثر من الرجل (دلوني) . ومنكبها الايسر اعظم من الايمن بخلاف الرجل كما في فروع البشر السفلى (هرتين وليڤون) والترقوة بالنسبة الى العضد اطول فيها منها فيهِ (بروكا) كما انها اطول في السود منها في البيض

والذكر اعظم من الانثى كما هو معروف في الحيوانات الاهلية . والرجل يزيد المرأة اثني عشر سنتيمترًا طولًا (توبينار) وهي اخفُّ منهُ وان ظهرت اسمن لتغلُّب الشحم فيها الذي يكسب بدنها استدارةً ونعومةً ويستر عضلها بخلاف الرجل فانهُ قليل الشحم نافر العضلات صلب البدن . وهي بارزة القفَين اكثر منهُ في الشعوب الهندوجرمانية (توبينار)

وقدَم المرأة اكثر انبساطًا واقلُّ تحدُّبًا من قدم الرجل (دلوني) وذلك يدلُّ على الانحطاط . وذوات الغنج والدلال يحاولنَ اخفاء ذلك بالأَحذية المصنَّعة ذات الكعب المتطاول

وصوت المرأة أعلى من صوت الرجل . وكذلك اصوات اناث الحيوانات اعلى من اصوات ذكورها

وعَضَل الذكر اغلظ واشدُّ من عضل الانثى كما في الحيوانات الوحشيَّة والاهليَّة . وقوَّة المرأة من سن ٢٥ الى ٣٠ مقاسة بالدينامومتر ثلثا قوَّة الرجل في هذا السن . وحركاتها اضبط من حركاتهِ ولهذا يفوقها هو ولا تدركهُ هي في فنَّي الموسيقى والتصوير

وحجمة الرجل اكبر من حجمة المرأة (بروكا والجمهور) وسمنها في الرجل الابيض ١٤٤٦ سنتيمترًا مكعَّبًا وفي امرأتهِ ١٢٢٦ (هُشْك) . والحجمة اقلُّ ارتفاعًا واطول في المرأة منها في الرجل (بروكا)

ودماغ الذكر اثقل من دماغ الانثى . فدماغ ذكر الكوريلّا وهو نوعٌ من القرود يَزِن ٥٤٠ غرامًا ودماغ انثاهُ ٤٧٠ . ومعدّل وزن دماغ الرجل ١٣٢٣ غرامًا والمرأة ١٢١٠ والفرق ١١٣ غرامًا (بروكا) ولا يحمل هذا الفرق على صغر قدّ المرأة بالنسبة الى الرجل فان قامة المرأة بالنسبة الى الرجل هي كنسبة ٩٢٧ الى ١٠٠٠ واما وزن دماغها فهو كنسبة ٩٠٩ الى ١٠٠٠

وباجماع الانثروبولوجيين مقدّم الدماغ الذي هو مقرُّ القوى العاقلة الرفيعة اصغر في المرأة منهُ في الرجل سواء هُذِّبا او كانا على الفطرة وهذا الفرق ٥٤ سنتيمترًا مكعّبًا راجحة من جانب الرجل (هشك) . ومؤخّر الدماغ الذي فيهِ مركز العواطف اكبر في المرأة منهُ في الرجل ولهذا قيل ان المرأة تحيا بقلبها اي بعواطفها والرجل يحيا بعقلهِ

ونصف دماغ المرأة الايمن اكبر من الايسر بخلاف الرجل وهذا يُفهَم منهُ لماذا المرأة تياسر اي تذهب ذات اليسار والرجل يُيامِن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهرٌ حتى في عرى ثيابها وازرارها فان حركة التزرير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينيّة كما يمكن تحقُّقهُ من ارسال النظر اليها . وهذا يدلُّ على ان الاختلاف بين الرجل والمرأة من اصل الطبع . ودلوني اوّل مَن نبّه النظر الى ذلك وقال ان حركة المرأة اليساريّة او التقريبيّة كما يسمّيها ايضًا دليل على الانحطاط لانها تشاهد في الحيوانات كالقرود وفي فروع البشر السافلة وان حركة الرجل اليمينيّة او التبعيديّة كما يقول ايضًا دليل على الارتقاء[1]

فهذا نظر تشريحي وفزيولوجي يبين منهُ هذا الفرق بين الرجل والمرأة واما من الوجه الادبي فقد اختلفوا في هل المرأة انبل خُلقًا من الرجل ام لا . وتوجد مؤلّفات كثيرة في مدح المرأة وذمّها وقد ذهب مؤلّفون كثيرون الى ان المراة انهم من الرجل واكسل واشبق وابخل واكثر عجبًا وكبرًا وحسدًا واشدُّ حنقًا وحقدًا . وفي العصور الوسطى طرح احد المجامع هذه المسألة مطرح البحث وهي "هل للمرأة نفس"[2] ولا نظنُّ ان احتقار المرأة بلغ هذا القدر في عصرٍ من العصور او عند شعبٍ من الشعوب . وجميع الحكماء والفلاسفة المتقدمين كابقراط وارسطو على ان المرأة احطُّ من الرجل . ويضيق بنا المقام عن استيفاء جميع ما قالوهُ في ذلك من مدحٍ وذمّ وتسميع وتشنيع . فنحن لذلك نُغفِل اقوالهم ونعتمد لحلّ المسألة على مباحث المتأخّرين المبني اكثرها على علم مقابلة افعال الانسان المعروف عندهم بالدموغرافيا

(١) المجلد السادس من المقتطف وجه ٢٣٥

(٢) المجلد السادس من المقتطف وجه ٢٧٦

من المقرّر المتفق عليه ان المرأة اقل ارتكابًا للجرائم من الرجل. قال كواتلت والذي يمنعها من ذلك انما هو خجلها وحياؤها وحافظًا من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها. وقال غيره ان التسميم الذي هو سلاح الجبناء هو في الغالب سلاحها. وهي احيل من الرجل وأخدع منه لانها اضعف منه والحيلة والخداع سلاح الضعيف. ان استفوتك استعطفتك ببكائها وان استضعفتك قتلتك بكبريائها. والجمهور على انها محبة ومحسنة اكثر من الرجل انما احسانها لا يغني ولا يُطاق وقلما تفعله الاّ لغرض ديني

واما من الوجه البسيكولوجي او العقلي فمن المقرّر ان القوى العاقلة تابعة لحالة الدماغ او بالحري لمركز هذه القوى فيه وهو في الحيوان العالي كما تقدّم أعظم في الذكر منه في الانثى ولذلك كان الذكر اعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعيين

وقد اتفقت جميع الشرائع على ان تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج الى وصيّ وسببُ ما بها من الخفّة والطيش. واما زعماء المساواة فيدّعون ان هذه الشرائع قد ضحّت المرأة للرجل لانّ الذين سنّوها انما هم الرجال. ووصف علماء الاخلاق المرأة بانها لاهية متقلّبة مفرّطة اكثر من الرّجل وجميعهم على انها مطبوعة على الخرافات والعناد والتشبّه والتمسك بالعادات القديمة اكثر من الرجل وعلى انها جذار مخواف اكثر منه. وقال بروكا العالم الانثروبولوجي ان المرأة اقل ادراكًا من الرجل وهو ايضًا رأي دروين كبير الطبيعيين في هذا العصر قال ما معناهُ ان الرجل والمرأة اذا تجاريا فالسابق السابق هو وهل يبلغ الظالع شأوَ الضليع

ونقل دَلُوني عن التجّار والصنّاع انّ المرأة تثابر على العمل اكثر من الرجل الاّ انها اقلّ ادراكًا منه ويقرب عملها من ان يكون ميكانيكيًا اكثر من ان يكون عقليًا. ففي المطابع تُحسن اعادة صفّ الكتب المطبوعة ولا تحسن صف الكتب المخطوطة كالرجال لانها لا تفهمها نظيرهم. وقال ايضًا اذا قيست المرأة بالرجل في اوروبا وجدت متأخرة عنه نحو قرن: فبينما الرجل يشتغل بالتاريخ والفلسفة والعلم تشتغل هي بمطالعة الاقاصيص وكتب الأدب. نعم انه حصل اليوم في اوروبا واميريكا ثورة في خواطر النساء فنهضن يطالبن الرجال بالاعمال التي انفردوا بها وينازعهم المراكز العلمية وقد صار عدد غير قليل منهنّ طبيبات غير انه لا يعلم انهنّ سرن الاّ على خطواتهم مقلّدات غير مخترعات وعلى المستقبل ان ينبئنا بما اذا كنّ يستطعن اكثر من ذلك

والخلاصة من كل ما تقدّم ان الذكر في الانواع العالية يمتاز على الانثى بشدّة التغذية وبالنتيجة بالقوّة العضلية والعقلية ايضًا لانه يوجد نسبة بين الحياة النباتية الخارجة عن سلطان الادراك وحياة النسبة الواقعة تحت هذا السلطان فالرجل لما كان يتغذّى اكثر من المرأة ويولّد

قوّة اكثر منها كان ضرورةً اقوى منها جسديًّا وعقليًّا

ومما ينبغي التنبيه اليهِ هنا ان الفرق بين الذكور اشدُّ منهُ بين الاناث وذلك يرى في الحيوان والانسان فان الرجال من الشعب الواحد بل من العائلة الواحدة يفرقون بعضهم عن بعض في القامات ولون الشعر والقوّة العضلية والصوت والمشارب حتى الخطّ ايضًا اكثر جدًّا مما يُفرّق النساء بعضهنَّ عن بعض. وشدة التباين من علامات الارتقاء كما لا يخفى على علماء هذا المذهب

هذا نظرٌ في المسألة من حيث الانواع . واذا نظرنا اليها الآن من حيث الفروع البشرية اعني بالمقابلة بين الشعوب المختلفة فنجد نفس النتيجة التي وجدناها في الانواع اعني ان المرأة تحطُّ عن الرجل كلما كان الانسان اعرق في الحضارة والمَدَنيّة وتساويهِ او ترتفع عنهُ كلما كان اقرب الى البداوة والخشونة جسديًّا وعقليًّا . وشهادات السيّاح التي تؤيد ذلك لا يحصيها عد فنقتصر منها على ذكر اليسير فرارًا من التطويل : حكى بستيان في رحلتهِ ان نساء هجّ افريقية اشدُّ من الرجال وانهنَّ يسُدنَ عليهم ويحاربنَ نظيرهم وهنَّ كذلك على شهادة مينرس في جزيرة كشنكا وجزيرة جاڤا وفي بعض قبائل اميريكا الجنوبية وفي كوبا . وحكى فولي ان المرأة تسود على العائلة في بعض قبائل السود حتى انها تضرب الرجل

وقال بروكا ان طول عظم الزند في الاسود بالنسبة الى عظم العضد باعتبار طول العضد مائة هو ٧٩٫٤٢ وفي امرأتهِ ٧٩٫٣٥ والفرق ثمانية اجزاء من مائة جزء وفي الاوروباوي ٧٣٫٨٣ وفي امرأتهِ ٧٤٫٠٢ والفرق بينهما عشرون جزءًا من مائة جزء وعليهِ فالاوروباوي اعلى من امرأتهِ اكثر من الاسود بالنسبة الى امرأتهِ السوداء . والفرق بين الجنسين في حجم المنكب هو في الشعوب المتمدنة اعظم منهُ في الشعوب المفوحشة وهذا الفرق يقلُّ كلما نزلنا من الاصول العليا الى السفلى . والفرق بين الرجل والمرأة في القامة اقل في الشعوب السفلى منهُ في العليا ومعدّلهُ بين الاوروباوي بين ٨٦ ملمترًا حسب تعديل كواتلت و١٢ سنتيمترًا حسب تعديل توينار واما في الشعوب السافلة فهو اقلُّ من ذلك جدًّا وفي البوشمان والبتغون يكاد الجنسان لا يُفرّقان بالقامة

واما الفرق في سعة الحجمة بين المرأة والرجل فهو ٤٧ سنتيمترًا مكعبًا من جانب الرجل لاهالي استراليا (دفيس) و ٥٩ لاهل الصين و ١٢٩ لاهالي كلدونيا الجديدة (بروكا) و ١٤٩ لقبائل الاسكيو و ١٥٠ لعموم سكان فرانسا و ٢٠٣ لسكان بريطانيا و ٢٢١ لسكان باريز على قول بروكا ورجحان هذا الفرق من جانب الرجل يكون اعظم كلما كان الشعب ارفع (هشك و بانيس)

(ستأتي البقية)